لورين فيليبس | *Loren Phillips
ترجمة: هيئة التحرير | Translation: Editorial Board

الذكاء الاصطناعي من خلال عدسات متعددة: استعادة الثقة في عصر الاستقطاب

AI Through Many Lenses: Reclaiming Trust in a Polarised Age

المُعرّف الرقمي DOI
https://doi.org/10.31430/DMDL2519

* Loren Phillips, "AI Through Many Lenses: Reclaiming Trust in a Polarised Age," *Human Futures* (October 2025), pp. 94-99.

أولًا: مستقبلات متصدعة، مصالح مشتركة

ليس الذكاء الاصطناعي قصة واحدة؛ إذ إنه مجموعة من القصص التي تتكشف في وقت واحد. ففي سان فرانسيسكو، يُروى أنه قصة ابتكار ثوري. وفي بيجين، يُصوَّر على أنه أداة لتعزيز القدرة التنافسية الوطنية. وفي جوهانسبرغ، أو نيروبي، أو لاغوس، يُنظر إليه بحذر أكبر؛ باعتباره شيئًا مستوردًا وقويًا، ولكنه ليس ملكنا كليًّا لنشكّله كما نشاء.

ويُطلب منا أن نصدق أن الذكاء الاصطناعي كوني، ولكنه في الحقيقة هو منظور فحسب، فما تراه يعتمد على المكان الذي تقف فيه. وما تراه، أو لا تراه، يحدد مدى ثقتك به، وكيفية إدارته واعتماده.

وفي عصرٍ يتّسم بالريبة والاستقطاب، نحتاج إلى طريقة جديدة للنظر إلى الذكاء الاصطناعي؛ ليس بوصفه مسارًا واحدًا، بل بوصفه مجموعةً من العدسات؛ أي بوصفه وجهات نظرٍ تكشف عن الانقسامات والإمكانيات على حدٍ سواء. وتحمل كل وجهة نظر توتراتها الخاصة: بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب، والذكور والإناث، والشباب وكبار السن، والبيض والسود، واللامع والظليل، والتجديد والتدهور.

ثانيًا: منظور الشمال والجنوب: مَن أجندته هي المهمة؟

كان الشمال العالمي، طوال عقود طويلة، هو الذي يكتب قواعد التكنولوجيا. فمن الشركات الناشئة في "وادي السيليكون" (Silicon Valley)، إلى الهيئات التنظيمية الأوروبية، تظل مراكز جاذبية الذكاء الاصطناعي راسخةً فوق خط الاستواء. ويجري تدريب النماذج على بيانات الشمال، وتوضع المعايير في منتديات الشمال، وتتدفق رؤوس الأموال من الشمال إلى الشمال.

ومع ذلك، فإن التأثير كوني؛ ذلك أنه يجري إخبار الشركات الأفريقية بأن عليها "اعتماد الذكاء الاصطناعي، أو التخلف عن الركب". وتصل الأدوات جاهزةً للاستخدام، ولكنها غير ملائمة. ويدرك هذا التوتر كلٌّ من البنك الجنوب - أفريقي الذي يقيّم المخاطر باستخدام نموذج مدرّب على سجلات الائتمان الأميركية، والمستشفى الكيني الذي يجرّب روبوت محادثة مصممًا للاستفسارات باللغة الإنكليزية فقط.

والخطر هنا واضح؛ فنحن لا نستورد أدوات فحسب، بل نستورد افتراضات أيضًا. فالرموز البرمجية تخفي قيمًا ثقافية، وأولويات اقتصادية، وافتراضات حوكمة، قد لا تتوافق مع سياقاتنا. وما يُسمى "الذكاء الاصطناعي المسؤول" في بروكسل، قد يبدو إفراطًا في التنظيم في لاغوس. وما يُحتفى به باعتباره "ذكاءً اصطناعيًا جديرًا بالثقة" في بالو آلتو، قد يفشل في معالجة الواقع المتعدد اللغات والأعراق في جوهانسبرغ.

ومع ذلك، فإن هذه القصة لا تتعلق بالاعتماد فقط؛ فالجنوب لديه القدرة على الفعل، ولديه فرصة أيضًا. ويمكن أن تعامل الشركات والحكومات الأفريقية التكنولوجيا المستوردة على أنها مادة خام، وليس على أنها منتج نهائي. ويمكنها التكيّف، وإعادة التدريب، وإعادة السياق. ويمكنها كذلك وضع معاييرها الخاصة للإنصاف والأداء، استنادًا إلى الواقع المحلي.

ثالثًا: منظور الشرق والغرب: بين التنافس والمستقبل المتعدد الأقطاب

إذا كان منظور الشمال - الجنوب يتعلق بمن يضع جدول الأعمال، فإن منظور الشرق - الغرب يتعلق بنوع جدول الأعمال الذي يجري وضعه. ويمكن أن نلاحظ نموذجين سائدين في حوكمة الذكاء الاصطناعي:

- في الولايات المتحدة الأميركية، يُنظر إلى الذكاء الاصطناعي على أنه محرّك للابتكار والمنافسة. والمنطق هنا ليبرالي، ومدفوع بالسوق: دع الشركات الخاصة تتحرك بسرعة، وتستحوذ على حصة السوق، وتدفع الحدود، بينما تسعى الهيئات التنظيمية جاهدة للحاق بها.
- في الصين، يرتبط الذكاء الاصطناعي ارتباطًا وثيقًا بالاستراتيجية الوطنية. فالاستثمارات التي توجهها الدولة، والتطبيقات التي تركز على المراقبة، وتكامل البنية التحتية، تضفي عليه طابعًا مختلفًا تمامًا؛ فهو مركزي ومنسق، وغالبًا ما يكون غير شفاف.

أمّا بالنسبة إلى أفريقيا، فليست هذه المنافسة نقاشًا جيوسياسيًا مجرّدًا فحسب؛ فهي تظهر في كل قرار شراء، وكل شراكة، وكل خيار يتعلق بالبنية التحتية. فهل ينبغي لشركة اتصالات أن تبني شبكة البيانات الأساسية الخاصة بها مع موردين صينيين، مع العلم أن ذلك قد يؤدي إلى تقييدها بهيكل مراقبة معيّن؟ وهل ينبغي للبنك أن يعتمد خدمات سحابية أميركية المنشأ، مع العلم أن سيادة بياناته قد تصبح خارج القارة؟

يكمن الخطر في أن القادة الأفارقة مجبرون على الاختيار بين خيارين: الشرق أو الغرب، واشنطن أو بيجين. لكن الفرصة الأكبر هي المطالبة بموقف متعدد الأقطاب يقاوم التبعية. وتعني تعددية الأقطاب الاعتراف بأن أفريقيا ليست مستهلكًا لتكنولوجيا الآخرين فقط، بل منطقة لها متطلباتها الخاصة أيضًا: تشغيل الشباب، والتنوع اللغوي، والشمول المالي، والاقتصادات غير الرسمية.

رابعًا: منظور الذكور والإناث: مَن الذي يشكّل صوته الآلة؟

تحمل كل تقنية بصمة صانعيها. وفي مجال الذكاء الاصطناعي، غالبًا ما تكون هذه البصمات ذكورية، ويهيمن عليها الرجال؛ من مختبرات الأبحاث إلى مجالس إدارة رؤوس الأموال الاستثمارية. والنتيجة هي نظام بيئي للتصميم توجد فيه النساء بصفتهن نقاط بيانات، ولكنهن نادرات من حيث هن صانعات قرار.

ولنتأمّل هذه المفارقة: معظم المساعدات الرقمية، مثل "سيري" Siri، و"أليكسا" Alexa، و"كورتانا" Cortana، تعتمد صوتًا أنثويًا على نحوٍ افتراضي. وهي مبرمجة لتكون مفيدة، ومحترمة، ومتاحة للاستجابة. غير أنّ الأنظمة التي تدعمها طوّرتها، إلى حدّ بعيد، فرق يهيمن عليها الرجال. ولا يقتصر الأمر هنا على تفصيل في تصميم الواجهة، بل يكشف أيضًا عن نصوص ثقافية خفية؛ إذ يُؤنَّث الذكاء الاصطناعي حين يكون في موقع الخدمة، ويُذكَّر حين يرتبط بالأمر.

وعلى مستوى التبنّي والقيادة، تختلف ديناميات النوع الاجتماعي؛ فغالبًا ما تتعامل القيادات النسائية مع الذكاء الاصطناعي بحذر أكبر، إدراكًا منهن للتحيّز والتأثير الاجتماعي. أمّا الرجال، الذين اعتادوا ربط المخاطرة بالقيادة، فقد يتقبّلون الجانب المشرق، من دون التساؤل عن الجانب المظلم. وكلا المنظورين مهمان، ولكن عندما يهيمن أحدهما، تفقد المنظمات توازنها. والآثار المترتبة على ذلك خطيرة؛ فالنماذج التي جرى تدريبها على بيانات توظيف متحيّزة، تكرر عقودًا من عدم المساواة بين الجنسين في مكان العمل. وتشخّص التطبيقات الصحية حالات مرضية على نحوٍ خاطئ؛ لأن بيانات النساء غير ممثلة على نحوٍ كافٍ. وتستبعد برامجُ القيادة النساءَ أو لا توفر لهن التمويل الكافي؛ وهذا يفاقم هذه الدورة.

ومن هذا المنظور، فإن سمة الشمولية للجميع ليست تنازلاً، إنها ميزة استراتيجية. فالأنظمة التي تُبنى من خلال العديد من الأصوات تكون أقل هشاشة، وأشد موثوقية ومرونة، على المدى الطويل.

خامسًا: منظور الشباب والكبار: فجوة الطلاقة

لطالما كشفت التكنولوجيا عن الفجوات بين الأجيال، لكن الذكاء الاصطناعي يزيد من حدة هذه الفجوة. فبالنسبة إلى المهنيين الأصغر سنًا؛ أي "جيل الرقمية" الذي نشأ على الهواتف الذكية، ووسائل التواصل الاجتماعي والبحث الفوري، يبدو الذكاء الاصطناعي امتدادًا طبيعيًا للحياة اليومية؛ فالتجربة سهلة، والتبنّي سلس، والفضول يفوق الحذر. أمّا بالنسبة إلى القادة الأكبر سنًا، فإن الحسابات مختلفة. فقد شهد الكثيرون موجات من الضجة الإعلامية من قبل، من "الدوت كوم" إلى "البلوك تشين"[1]، ويعرفون مدى سرعة انهيار الوعود، كما أنهم أمناء على الحوكمة، والمخاطر، والامتثال، وترددهم ليس جهلاً، بل مسؤولية.

والنتيجة داخل المؤسسات هي وجود فجوة في مستوى الإلمام بهذه التكنولوجيا. ففرق الموظفين الأصغر سنًا تتقدم بسرعة في استخدام النماذج التجريبية، وأدوات الذكاء الاصطناعي الشخصية، بينما يظل كبار المديرين التنفيذيين مترددين، ويطالبون بأدلة، وسياسات، وضمانات. ويرى أحد الطرفين أن الفرصة تضيع، بينما يرى الطرف الآخر أن المخاطر تخرج عن نطاق السيطرة.

ولا يعني سدُّ هذه الفجوة إجبارَ أحد الطرفين على تبني موقف الطرف الآخر، بل يعني إنشاء طبقة ترجمة بينهما، من خلال:

---

1 يشير مصطلح "دوت كوم" إلى الشركات التي تعمل عبر الإنترنت، ولا سيما تلك التي تركز نماذج أعمالها على الخدمات الإلكترونية، أو التجارة الإلكترونية، والتي عادةً ما تنتهي عناوين مواقعها الإلكترونية بـ "دوت كوم" (.com). وفي تسعينيات القرن العشرين، ارتبط هذا المصطلح على نحوٍ خاص بالتوسع السريع، ثمّ الانهيار اللاحق، للعديد من شركات التكنولوجيا؛ وهو ما يُعرف غالبًا باسم "فقاعة الدوت كوم" (Dot-com Bubble). أمّا "البلوك تشين" (Blockchain)، فهو نظام سجلات رقمية لامركزية، تُسجَّل فيه المعاملات بحسب التسلسل الزمني، وتُؤمَّن باستخدام أساليب التشفير عبر شبكة موزعة من أجهزة الكمبيوتر. ويُنظر إليها على أنها بنية تحتية أساسية لضمان الشفافية، والثبات، والثقة، في حفظ السجلات الرقمية، من دون الاعتماد على سلطة مركزية. ويدرج المؤلف هنا أمثلة عصر الدوت كوم، والبلوك تشين، ليبرز كيف أنّ الذكاء الاصطناعي، باعتباره تكنولوجيا شأنها شأن الابتكارات السابقة، يولّد في بداياته تفاؤلاً هائلاً، وحماسًا للمضاربة؛ وقد يمرّ بمرحلة من التوقعات المبالغ فيها، ولكنه يحتفظ مع ذلك بالإمكانات الطويلة الأمد ليصبح عاملاً ثوريًا يغيّر قواعد اللعبة. (المترجم)

- تزويد الموظفين الشباب بالأطر اللازمة لفهم الحوكمة والأخلاقيات.
- تزويد القادة الأكبر سنًا بالطلاقة، وليس فقط بالإشراف؛ حتى يتمكنوا من المشاركة بلا خوف.

وبهذا، لا تُعتبر الفروق بين الأجيال عائقًا، بل هي قوة تكميلية. فالشباب يجلبون الجرأة، والكبار يجلبون الثبات. ويشكلون معًا التوازن الذي يتطلبه التبني المستدام.

سادسًا: منظور أبيض - أسود: التمثيل في الآلة

تُوصف أنظمة الذكاء الاصطناعي بأنها "محايدة" في الغالب، لكن الحياد ليس سوى أسطورة؛ إذ إن النماذج تتعلم من البيانات، والبيانات تعكس المجتمعات التي تنتجها. وإذا كانت تلك المجتمعات غير متساوية، فإن التفاوتات يجري ترميزها. والنتيجة واضحة؛ فخوارزميات تقييم الجدارة الائتمانية التي جرى تدريبها على التاريخ المالي الغربي تقلل من قيمة المتقدمين في السياقات الأفريقية، حيث تهيمن الاقتصادات غير الرسمية. وتكرر أدوات التوظيف عقودًا من التحيز من خلال تصنيف السير الذاتية من جامعات، أو مناطق جغرافية معيّنة، أعلى من غيرها. وقواعد البيانات الطبية لا تمثّل المرضى السود على نحوٍ كافٍ؛ ما يؤدي إلى تشخيصات خاطئة، ونتائج أسوأ.

وفي مجال تطوير الذكاء الاصطناعي على الصعيد العالمي، غالبًا ما تكون الأصوات الأفريقية غائبة، أو هامشية؛ فقليل من اللغات الأفريقية مدعومة في النماذج السائدة، وقليل من الباحثين الأفارقة يشاركون في الهيئات العالمية المعنية بوضع المعايير. وليس هذا الغياب عرضيًا؛ إنه إرث نظام بيئي رقمي بناه آخرون في مكان آخر، من أجل أولويات ليست أولوياتنا.

وليس الإنصاف مسألة تقنية ثانوية؛ إنه شرط أساسي للثقة، فمن دونه، يخاطر الذكاء الاصطناعي بتضخيم عدم المساواة التي يعِد بحلّها. وبوجوده، يمكن أن يصبح هذا الذكاء أداةً للتعويض وتوسيعًا لنطاق الوصول إلى الائتمان، والصحة، والتعليم، لأولئك الذين جرى استبعادهم تاريخيًا.

ولا يقتصر الثنائي الأبيض - الأسود على التحيز؛ إذ إنه يتعلق أيضًا بالسيادة؛ أي الحق في الاعتراف بواقعنا، وتشكيل مستقبلنا، من خلال أنظمة ترى حقيقتنا كاملةً.

سابعًا: منظور اللمعان والظل: ما وراء مسرح الابتكار

يُعدّ الذكاء الاصطناعي إنجازًا مذهلًا؛ إذ تُعرَض على المديرين التنفيذيين نماذج رائعة لروبوتات دردشة قادرة على كتابة التقارير خلال ثوانٍ، ومولّدات صور تنتج حملات إعلانية خالية من العيوب، ومساعدات برمجية تكتب الأكواد بسرعة لافتة. ويبدو الوعد الذي تحمله هذه التقنيات شديد الإغراء، فهو إنتاجية بلا عوائق، وإبداع متاح عند الطلب، وذكاء يُقدَّم بوصفه خدمة جاهزة للاستخدام.

غير أنّ الظلال تتجمع خلف هذا السطح اللامع، فالنماذج قد تختلق المعلومات بثقة عالية، ويتسلل التحيز إلى القرارات الآلية، بصورة خفية لا تنكشف إلا بعد وقوع الضرر. وتدفع الأنظمة الاحتكارية المؤسسات إلى أشكال متزايدة من التبعية. وتزداد نقاط الضعف في الأمن السيبراني مع تزايد أسطح الهجوم. وفي الآن ذاته، تنتشر المعلومات المضللة بوتيرة تفوق انتشار الحقيقة؛ ما يقوض الثقة التي تعتمد عليها المؤسسات.

وهنا تتجلّى المفارقة؛ فكلما كان اللمعان أكثر إبهارًا، أصبحت الظلال أشد قتامة. ولذلك يخاطر القادة عندما يغريهم عرض النماذج الأولية والتجريبية، فيخلطون بين الاستعراض والاستراتيجية. فهم يعلنون "اعتماد الذكاء الاصطناعي" باحتفاء واسع، في حين أن المخاطر الكامنة، كحوكمة البيانات والرقابة الأخلاقية وثقة الموظفين، تظل بلا معالجة.

وبهذا، فإن الابتكار المسؤول ليس ابتكارًا أبطأ؛ إذ إنه ابتكار يرى المسرح بأكمله (الأضواء والظلال على حدٍ سواء)، ويوجه الانتباه وفقًا لذلك.

ثامنًا: منظور توليدي مقابل منظور تنكسي: اختيار التجديد أو الانحدار

يطرح الذكاء الاصطناعي، في جوهره، سؤالاً حضاريًا: أيساعدنا على التجديد أم أنه يسرع من التدهور؟

من الناحية الإنتاجية، يمتلك الذكاء الاصطناعي القدرة على تحرير انتباه الإنسان من الأعمال الاعتيادية، وتوسيع نطاق الوصول إلى الرعاية الصحية، والتعليم، وإطلاق العنان لأشكال جديدة من الإبداع. ويمكن أن يساعد الشركات على وضع نماذج لمقاومة التغير المناخي، والحكومات على تقديم الخدمات على نحوٍ أكثر إنصافًا، والمجتمعات على تصور مستقبل أكثر شمولاً من الماضي.

أمّا من الناحية السلبية، فيمكن أن يزيد الذكاء الاصطناعي من عدم الاستقرار؛ إذ يؤدي إلى فقدان الوظائف، من دون توفير بدائل مجدية، ويُغرق النظم البيئية للمعلومات بالضوضاء والتلاعب، ويركّز السلطة في أيدي عددٍ قليل من الشركات أو الحكومات. ويمكن أن يؤدي إلى تآكل الثقة، وزيادة عدم المساواة، وتعميق الانقسام الاجتماعي.

ولا يمكن النظر إلى أيٍّ من هاتين النتيجتين على أنها نتيجة حتمية؛ فالذكاء الاصطناعي ليس قدرًا محتومًا؛ إنه تصميم وحوكمة واختيار. والمسارات التي ستتشكّل مستقبلاً ستعتمد على القيم المدمجة في الأنظمة، والحوافز التي توجّه تبنّيها، وشجاعة القادة في التوجه نحو التجديد بدلاً من التراجع.

ومن خلال هذه العدسة النهائية، يصبح التوتر مسؤولية؛ مسؤولية زرع البذور المولدة، وتقييد البذور المتدهورة، والتصرف ببصيرة، بحيث لا يقتصر ما ينمو من الذكاء الاصطناعي على تحقيق الربح، بل ينبغي أن يكون مستدامًا وعادلاً أيضًا.

تاسعًا: من الثنائيات إلى الجسور

تكشف كل عدسة استكشفناها عن انقسام: الشمال مقابل الجنوب، والشرق مقابل الغرب، والذكور مقابل الإناث، والشباب مقابل كبار السن، والبيض مقابل السود، والضوء مقابل الظل، والتجدد مقابل الانحطاط. وإذا نظرنا إلى كلٍّ منها على حدة، تبدو كأنها مآزق. أمّا إذا نظرنا إليها مجتمعة، فإنها تشكّل خريطةً للميدان الذي ينبغي لنا أن نتنقل فيه.

ولا تكمن قيمة هذه الثنائيات في أنها تحصرنا في طرفين، بل في أنها تجبرنا على رؤية التعقيد بوضوح. فهي تذكّرنا بأن الثقة بالذكاء الاصطناعي لا يمكن أن تُبنى على قصة واحدة، بل ينبغي أن تنشأ من إدراك العديد من وجهات النظر في آن واحد، ومن تعلم كيفية التعامل مع التوترات بينها بدلاً من تجاهلها. وهذا هو جوهر معرفة المستقبل: أن نضع في اعتبارنا مسارات متعددة، وأن نتوقع تفاعلها، وأن نتصرف بفاعلية حتى في مواجهة عدم اليقين. وعندما نفهم الثنائيات على أنها عدسات، فإنها لا تصبح حواجز، بل جسورًا.

ملاحظة للمؤلف بخصوص استخدام الذكاء الاصطناعي

في هذا المقال، استخدمتُ أدوات الذكاء الاصطناعي "تشات جي بي تي" (ChatGPT)، و"كلود" (Claude)، بصفتها أدوات مساعدة في البحث لاستكشاف إطار عمل "اقتصاديات الدونات" (Doughnut Economics)، مع إيلاء توضيح الحدود الاجتماعية اهتمامًا خاصًا. وكان هدفي هو تحديد مجموعة متماسكة وسهلة الوصول من العوامل التي يمكن أن تدعم تحولاً في النموذج من أولوية المساهمين إلى نموذج يركز على أصحاب المصلحة. ولتحقيق هذه الغاية، صمّمت سلسلةً من الأسئلة الاستقصائية التي تعكس هذه الرؤية التحويلية. وبالتوازي مع ذلك، أدرجت أبعادًا تحليلية مستمدة من الخطاب بشأن عدم المساواة والتمييز؛ وهي شواغل أساسية لهدف التنمية المستدامة رقم 10، ولكنها مجالات لم تشهد سوى تأثير عملي محدود. وقد أدى توليف هذه الاستكشافات إلى تطوير مؤشر رأس المال الاجتماعي المقترح، الذي يمثّل الفكرة المركزية لهذا العمل.